

قصر الحمراء رمانة الأندلس المتفتحة وبديع القصور الإسلامية في غرناطة

نجيب خليفة * بتصرف*

السياحة الإسلامية الدار البيضاء



طابع الهندسة الإسلامية

إنه معطمة من معالم العمران والهندسة الإسلامية العربية في الأندلس جنوب إسبانيا، ذلك هو قصر الحمراء الذي يبرهن علي مدى جمالية وبديع الصناعة العربية الإسلامية في البناء والهندسة والنقش والزخرفة بكل أنواعها في ذلك العهد. ولا غرابة أن يطيل زائر مدينة غرناطة -الذي يوجد فيها القصر المعطمة- مكوثه هناك ليتمتع أكثر ويستكشف تلك البنيات التحتية الخالدة والمكونات المميزة للمركب العجيب، ويستمتع بفنون الكتابات المتنوعة والنقوش والأبراج والقاعات والحدائق والأسوار التي تدخل في تركيب قصر الحمراء، إنه إنجاز عمراي حضاري أرسى المسلمون الفاتحون للأندلس ركائزه، ليكون رمزا وصله لتواصل الماضي والحاضر الإسلامي بالحضارة الإنسانية جمعاء عبر الأجيال المختلفة.

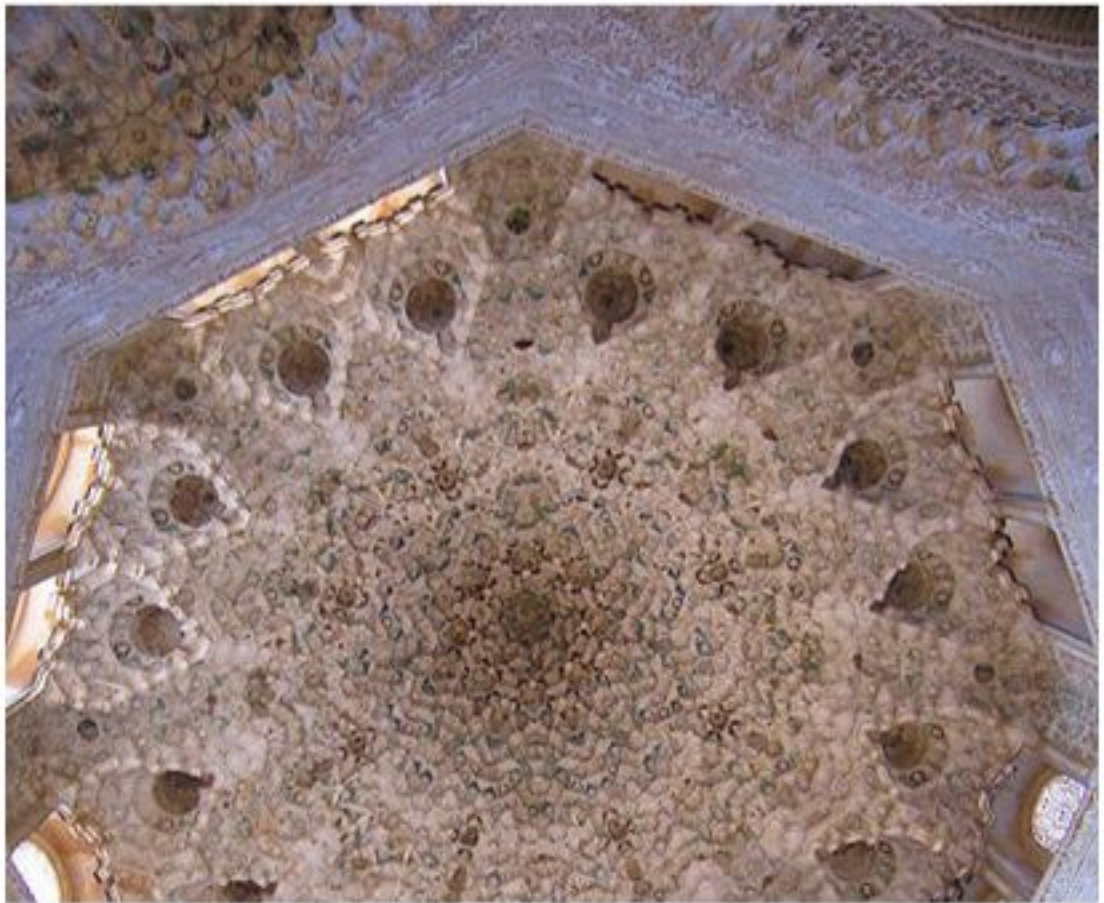
التسمية والتاريخ والحيثيات

الحصن قد سُمِّد عند طرف هضبة السبيكة الغربي، و بتوالي الأيام وبالضبط في عهد بني الأحمر (بنو نصر) سُمِّلت مباني هذا الحصن الهضبة كلها، حيث صار قصرا شامخا بمعنى الكلمة.

ويروي أنه في حقبة من الزمن صار القصر مهجورا لأسباب معينة، بالضبط في نهاية القرن الثالث الهجري الموافق للثامن الميلادي والموازي لنهاية أيام الخلافة الأموية في الأندلس، غير أنه

لقد أجمع المؤرخون كلهم، و خبراء الهندسة والعمارة الإسلامية، والباحثون في شؤون قصور الحمراء، على أن اسم (الحمراء) اختير للقصير في أواخر القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع الميلادي، أثناء الفتن وأعمال الشغب التي ظهرت خلال حكم الأمير عبد الله الأموي، و في بداية تأسيسه كان عبارة عن حصن صغير لجأ إليه المسلمون الهاربون من شر تلك الفتن، وكان هذا





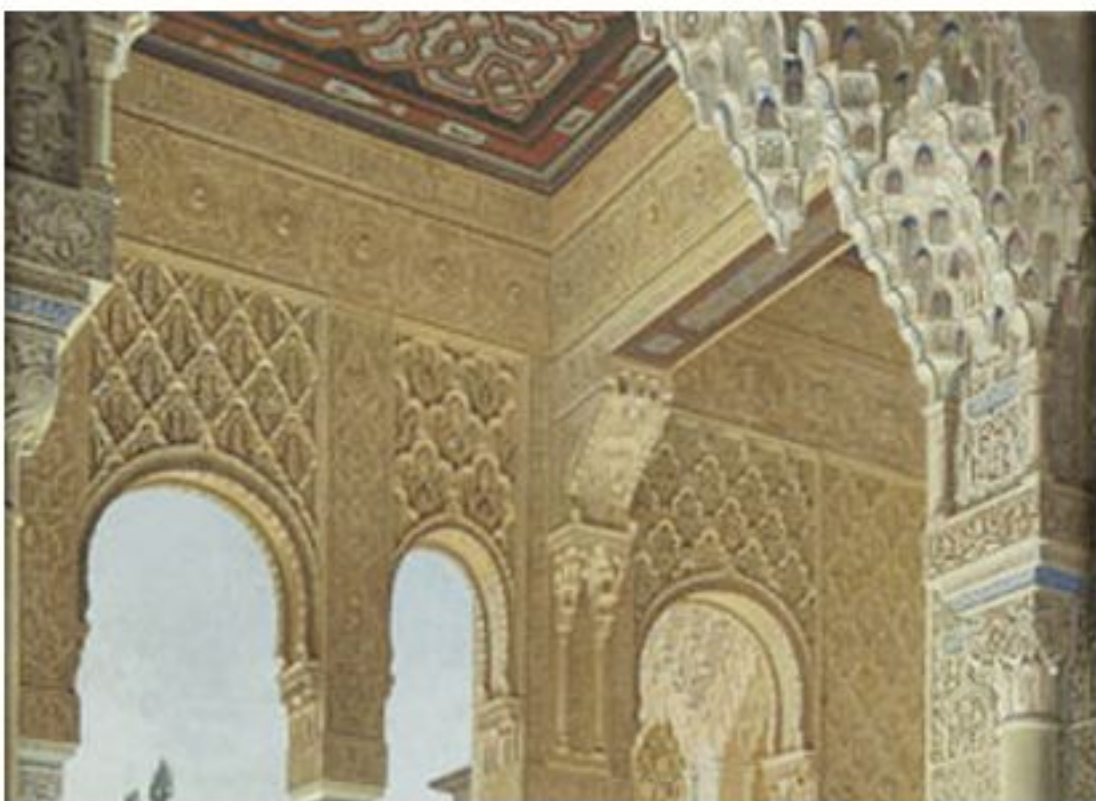
وسيكون القصر مقاما رئيسيا ومركزا لمملكة محمد بن الأحمر (من بني نصر) لفترة وجيزة حينما استولى على غرناطة في رمضان 635هـ (1238م) بعدما كان مقيما في قصبة بني زيري التي كانت في مدينة غرناطة نفسها. حيث حتمت عليه هذه الظروف وفي فترة زمنية قياسية و وقت سريع إعادة إنشَاء قصر الحمراء، و بدأ العمل في إنشَاء قصر الحمراء بعد أشهر قليلة من دخوله

أعيد ترميمه وبناءه في أوائل النصف الأول للقرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي، واتسعت أرجاؤه في أيام الوزير صموئيل بن نجرلو (443-447هـ) (1052-1056م)، وقد تمادى الأمير الزيري عبد الله بالإعتناء به وزخرفته من جديد على غرار *قصر بلبوس* المسيحي الذي استولى عليه وأثرت فيه الفنون التشكيلية التي ساهمت في تزيينه.

إلى غرناطة، وكان المبنى الجديد يختلف اختلافاً بيناً عن الحصن القديم في أجزائه وسعته وجوانبه وملحقاته. فقد أكد الخبراء أن الحمراء أكثر من حصن وقصر معاً، إنها مدينة كاملة ومركز وقاعدة للدولة العربية الإسلامية آنذاك (دولة بني نصر).

التوسعة والملحقات

إن زائر غرناطة اليوم سيلاحظ أن أمام الحي التجاري لمدينة غرناطة تعلو قصبة أخرى رتب وعتل بناؤها أيام بني





كبرى: باب السلاح، وباب الطباقي
الثلاثة، وباب الشريعة، أنشئت كلها في
حكم يوسف الأول (833-855هـ)
(1333-1354م). وأتم السلطان محمد
الخامس المنتمي بدوره لدولة بني نصر،
برج المئين Peinador.

ووراء الأسوار، تقع جبال سيرانيفادا
ذات المناظر الخلابة التي طالما تغنى
بها شعراء غرناطة من أمثال ابن
الخطيب وابن زمرك وغيرهما، مما
أضفى للموقع قيمة مضافة من الجمالية

أما الأسوار الخارجية للقصبة فقد بناها
وأنشأها محمد الأول ومحمد الثاني «
من بني نصر». ولم تأخذ شكلها الأخير
إلا في منتصف القرن الثامن الهجري
-الرابع عشر الميلادي، والأسوار لم
تكن سوى موانع ووسائل للدفاع عن
قصور الحمراء، بدليل أنه بنيت بها
قواعد المدافع خلال القرن الخامس
عشر، وقد تبديت تلك المصاطب أو
القواعد، عند أسفل البوابات الثلاث
الكبرى. وتبديت بعدها أبراج: (القنديل)
(المطرقة) و (قمارش)، وثلاثة أبواب

والرونق إضافة قيمة الوديان والسهول والأتهار والغابات التي تتوسطها الهضبة بمبانيها وكأنها رمانة مشقوقة تظهر منها حبات الرمان المنتورة. و يبلغ طول الهضبة 470م وعرضها حوالي 220م، وقد بدأ العمل في تشييد قنطرة كبيرة لنقل المياه من الجبال المجاورة إلى الهضبة حيث كانت المياه متوفرة في كل موضع في المدينة وفي قصور الحمراء.

خلاصة وعبرة
ومنذ (671-701هـ) 1273-1302م،

لم يغير ملوك بني الأحمر شكل حصنهم الأحمر المنيع ولم يضيفوا إليه أي توسعة إلى أن غادروه نهائياً في عام 1492م على أثر سقوط غرناطة بيد القوط. وذهب كل شيء مع الريح، وتيتمت الحمراء بعدما تركها أهلها وبانوها، و التي قبل كل شيء كانت تعتبر حصناً حصيناً متبعاً للمسلمين في غرناطة، تشهد على سموخها الأسوار والأبراج العالية التي تحيط بالحمراء، والفناء الكبير الذي تضمه الساحة في الداخل والذي ينحدر على كلا الجانبين من الهضبة، ولا زال





الحصن شاهد عيان يبرهن على أنه أقوى وأجمل بل وأفضل ما أنشئ في فن العمارة المدنية السكنية والحربية الدفاعية على مر العصور..

وسنسمح أن افترض هذه الكلمات المعبرة والمؤثرة التي ختم بها أحد الأساتذة المؤرخين مقاله في أحد المنتديات حول موضوع قصر الحمراء حيث كتب:

* ولو وصفنا الحمراء بكل صفات البذخة والتراء والجمال والرونق، ولو سمينها حسب أهوائنا بدار المفاجآت، تم ألفنا فيها الكتب المتعمقة والمدائح الطويلة والأشعار البليغة، لما خطر ببال من زارها وتنتقل في أجنحتها وشاهدها ونعها، أن يتهمنا بالمبالغة والإسراف، لأن الحمراء لا توصف ولا تمدح، بل تشاهد فقط، وأي ذاكرة تقدر على تسجيل واستحضار آلاف الصور والمشاهد الماثلة في كل مدخل وناغذة وزاوية). هذا هو قصر الحمراء في غرناطة، أحد صروح العرب الخالدة في الأندلس، ذلك الفردوس العربي السليب.*

الحصن شاهد عيان يبرهن على أنه أقوى وأجمل بل وأفضل ما أنشئ في فن العمارة المدنية السكنية والحربية الدفاعية على مر العصور..

وسنسمح أن افترض هذه الكلمات المعبرة والمؤثرة التي ختم بها أحد الأساتذة المؤرخين مقاله في أحد المنتديات حول موضوع قصر الحمراء حيث كتب:

* ولو وصفنا الحمراء بكل صفات البذخة والتراء والجمال والرونق، ولو